اللغة العربية والعولمة

عبد القادر فيدوح

. اللغة العربية وتجليات التحول

كثر الحديث فى الآونة الأخيرة عن مكا ة اللغة العربية بين لغات العالـ ، كما يكثر الحديث عن دورها المعرفي فى ظل العولمة، وهل حقيقة ما يروج من أن دور اللغة العربية ينحسر فى امتداد مسيرتها المعنوية والأخلاقية؟ وإلى أي مدى تكون أقرب إلى العلوم الإنسانية، وأبعد ما تكون من العلوم الدقيقة وتكنولوجيا المعلومات .

ويبدو أن أهمية التساؤل عن مكانة اللغة العربية مشروعة، ومشفوعة، بتحسرنا على دورها، وتلهفنا على مجده ، بعد أن كان لها موقع الصدارة فى يوم الفتـ حات، بما أتيح لها من دور فاعل فى الوجود الحضاري .

ولعل الحديث عن اللغة العربية بهذه الطروحات يقودنا إلى الحديث عن المعرفة بوجه عام، وفى حال إ كان ربط العلاقة بين الدور المنوط بها والرغبة فى النهوض بالحركة العلمية، نصل إلى أن اللغة العر ية لا تشكل الواجهة الحقيقية لمسار الاكتشافات العلمية، وهذا يجرنا إلى عدم وجود مناخ علمي، ناهيك ـ ن وجود عوامل من شأنها أن تسهم فى شيء اسمه علـ ' فى المعمورة العربيـ . ولكن، أين الخطأ هنا؟ فى اللغة أم فى راعي هذه اللغة؟ ذلك أن مرتكزات العلم ــ أنَّى كان موقعه ــ بحاجة إلى مبادرة وإلى قرارات مسئولة وحكيمة، وتبقى اللغة هي الوسيلة لتنفيذ ما تستوجبه هذه الأحكام والقرارات لإمكان بلوغ مرامي الكشف العلمي، والوصول إلى تحقيق أهدافه النبيلة، ولا غرو أن يكون هذا عزيز المرام فى حال وجود العزيمـ ، وأملنا فى ذلك كبير، ولكـ :

على قدر أهل العزم تأتي العزائمُ وتأتي على قدر الكرام المكارم[14]

وفى خضم الرهانات المزايدة بكسر اليا] للذه ب بلغة ما إلى أبعد من الثانية فى اكتشافاتها، أو تقربها من اللغة الإنجليزية التي أصبحت تهيمن على العالم، بوصفها اللغة النموذج على مختلف مستويات الحياة العادية، ناهيك عن مستوى تكنولوجيا المعلومات، فى ظل هذا الإشكال أصبح من المسلمات أن اللغة العربية إذا لم تواكب الاكتشافات العلمية فإن استمر ار بقائها مر ون بعزيمة أهلها،

وبإسهامهم فى صنع مبادئ الألفية الثالثة، وعواملها التي بها تقوم، وإن أبقيناها على عهدها، ولم نسهم فى تفعيلها بحسب مستجدات العصر، فإن أدوارها ووظائفها ستتضاءل، وتركح إلى ركن عديم الجدوى، وأكثر من ذلك قد نتسبب فى تحجيمها، وتلجيم ا على الرغم من حمايتها من القرآن، ووقايتها من المرجعية الحضارية، أو تتقاعس همتنا، وتتهاون قدرتنا، وتقصر إرادتنا فند هم ــ بوعي أو من دون وعي منا ــ فى موتها على حد ما قاله أدونيس ورغم أن القرآن الـ ريم يحفظها، إلا أن عدم الجدية ى قراءة القرآن، يجعل موت اللغة العربية فرضية يجب النظر فيه[5] . من هذا المنظور يجب التأمل بجدية فى مصير لغتنا التي تمثل هويتنا أمام الزحف الجارف، والسيل الكاسح لمظاهر العولمة، حيث أجمع جل الباحثين فى مختلف أنحاء العالم أن عولمة الثقافة، وتربع اللغة الإنجليزية على رأس قائمة اللغات الـ لمية يعد أكثر خطورة على اللغات الوطنية من الغزو الاستعماري على الأوطان، وذلك من خلال إضعاف هويتها، وسلخها من شخصيتها؛ الأمر الذي ينعكس سلبا على بناء ثقافة الناشئة، وخلخلة هويتهم العربية الإسلامي .

وقد يبدو للرائي أن هناك اه ماما متزايدا من قبل المعنيين، فى المؤسسات، بشأن تنمية اللغة العربية فى الوط ن العربي، غير أن هذا الاهتمام فى خلفيته ــ بحسب منطق اللا قول ــ يبدو هَرَمًا معكوسا، أو فى شكل هندسي مخروط، قاعدته مستديرة تعكس الإحاطة المركز ة فى . وهرها بموضوع الاهتمام بلغتنا التعريب ، فى حين تعكس نـ اية هذا لمخروط نقطة رأسية ضيق ، ونتيجةً مقصودة، ، عديمة الأهمية، ومفر غة من ثمينها النفيس، ومن معدنه ، ووضعت موضع عنق الزجاجة، فأريد لها أن يكون من ثمارها التعريب، وتحويله إلى " جعجعة بلا طحين " ولم نجن من هذا الطحين غير الإحباطات والانتكاسات، ولم نجد ما يشفع لنا غير البكاء على " ليلانا " مُذْ كانت مجد الشعر العربي، ورمز ا قافة العربية التليد .

لقد بدأت ظاهرة العولمة تؤثر تأثيرا سلبيا فى جميع المجالات، بخاصة ما يتعلق بالثقافة فى مضامينها وأهدافها، وعلاقة ذلك باللغة القائمة على أجواء هذه الثقافة التي أصبحت ممسوسة خروقات العولمة، وثقافة ما بعد الحداثة، المموِّهة للحقائق، والمفسِدة للمرجعيات، وإذا كانت العولمة الاقتصادية واضحة كل الوضوح، فإن العولمة الثقافية ــ على العكس من ذلك ــ ليست بنفس وضوح العولمة الاقتصادي . كما أنه إذا كانت العولمة الاقتصادية تبدو للبعض مكتملة على أرض الواقع، والعالم أوشك أن يكون معولما عولمة اقتصادية كاملة، فإن العولمة الثقافية ليست بنفس القدر من الاكتمال [6] ، نظرا إلى ما ينتابها من شكوك فى محاولة الهيمنة على العالم، كو ها موضع الريبة والقلق والاضطراب .

ويعتقد أنصار هوس العولمة من بني جلدتنا ــ العَقَّة ــ أن للغة العربية إخفاقات كثيرة منه :

- زوال صفة ثبات اللغة العربية أمام اللغات الحية .
- انتفاء القيمة الجوهرية للغة العربية فى ظل العولمة .
- عقم الثقافة العربية لا يشجع على تبني اللغة العربية وإحيائها .
- انقطاع الثقافة العربية عن دوران الركب الحضاري، انقطع بها حبل التواصل .
- عجز الوعي العربي عن تمثّل روح العصر والدخول فى الألفية الثالثة .
- عدم الإسهام فى مشروع الحداثة وانبتات التواصل مع ما بعد الحداثة .

أمام كل هذه المثبطات ــ وغيرها كثير، لكفاية ما ذكرنا ــ بدو على أنصار النموذج الغربي، فى حَرْفيته، الرغبة منهم فى إلحاق ثقافتنا بالغرب، متناسين أن الغرب لا يعترف بغير ذاته، وكل ما يصب فى اهتمامه بالآخر لا يخدم إلا مصالحه، ومهما تنطعوا فى لغة الآخر، أو تراطنوا، لن يكونوا إلا أداة طيعة لمحاولة تدجين ثقافتنا وترويض وجودنا، وقد أصبح هؤلاء الأنصار بيادق لعبة شطرنج فى أيدٍ متقنة . لذلك نعتقد أن سبب مشاكل أمتنا العربية، وتخلفنا، وتراجع لغتنا، وحضارتنا هو تعصب هؤلاء لثقافة الآخر وارتباطهم به ارتباط اللحم بالعظم، سواء فى أثناء حقبة وجود المستعمر فى أوطاننا، أو عندما خرجوا، بعد تفطنهم أن بقاءهم فى هذه الأوطان لا يخدم مصالحهم بالقدر الذي يخدمها وهم خارجه، على نحو ما قاله جاك بيرك jacques berque حين نصح فرنسا " **إذا أردتم أن تبقوا فى الجزائر فاخرجوا منها** " ولا أدري هل بمقدور عربي واحد أن يصرف وجهه عن هذه المقولة فى تطابقها مع بعض الشرائح فى مجتمعنا من الذين استقلوا أبرياء الذمة، سواء فى الجزائر أو فى باقي الدول العربية التي رزحت تحت وطأة حروب الاستعمار، ووهنت بداء الاستغلال .

وإذا أريد للغة العربية أن تكون غريبة فى أوطانها فبفعل حدة المدافعين عن اللغة الأجنبية، بوصفها لغة وظيفية تمارس فى مواضع عملية ميسرة مثل السيرورة العلمية، والاقتصادية، والإدارية، ممارسة فعالة، فى حين هم فى واقع الأمر إنما يدفعون عن ضمان تعزيزهم، والتحكم فى التدبر والتدبير، مفضلين مصالحهم الشخصية على معزة الهوية . من هنا جاء رد فعل الجيل الناشئ، الذي كنا نراهن به على الوعد الناجع، سلبيا من دون وعي منه بإدخال لغة ــ أو بالأحرى لهجة ــ ثالثة جعلت من حديث الشارع، وحديث السوق، وحديث عامة الناس معجما لها، يستقي من هذا الحديث المائج فيض اصطلاحات هذه اللغة العفنة التي دبّت بشكل لافت، وجالب للنظر، وداعٍ للحيرة، حتى أصبحت دارجة فى المؤسسات التعليمية، ووسائل الإعلام، واللافتات، والتظاهرات، على الرغم من كونها هجينة وساقطة، وكأن اللغة العربية أصبحت فى خبر كان، وتجاوزتها الأحداث بحسب تصور هؤلاء المهجّنة، وبسلوكهم الهجين، ولسانهم المعتل، ولعل فى قول معروف الرصافي ما ينطبق عليهم :

لا تُسابقْ ى دلْبة العِزِّ ذا الـ ــــ ــــ م فما للهجين شأنُ الجوادِ

إن التعصب للغة الأجنبية، بدافع مسايرة العولمة ومشتقاتها من الوسائل المدمرة للهوية الوطنية ــ حيثما كانت ــ فى جميع أنحاء المعمورة، من شأنه أن يضعف لغتنا التي صمدت فى وجه كل المؤامرات عبر العصور، وإذا كان دعاة التعصب منطلقين من قناعة أن اللغة الأجنبية لغة وظيفية فى مجال التداول السليم للمعرفة والعلوم، فإن الدراسات العلمية، والتجارب الجادة، والمستخلِصة لنتائج نفعية، وقدرة متبصرة، أثبتت أن محركات البحث فى الثورة المعرفية تقبل أي لغة يراد لها الحياة، وأن آلية هذه المحرِّكات فى يد أصحابها، وليست فى اللغة، وفى مثل هذه الحال ماذا يفعل اللسان إذا كانت الجثة هامدة . ولنا فى ذلك أمثلة عديدة ــ كما سيأتي الحديث تباعا عن بعض اللغات ذات الأقليات، وأثبتت وجودها علما وعملا ــ مثل اللغة الفنلندية، والدنماركية، والعبرية لتي أصبحت بين عشية وضحاها لغة نووية . والقائمة طويلة، عريضة، من اللغات التي تَمكن أصحابها من تطويعها وتفعيلها، كونهم تبنوا سياسة لغوية حكيمة، شأن الحكمة القديمة التي أطلقها الفيلسوف الصيني " كونفوشيوس Confucius " عندما دعا إلى تهذيب اللغة وتنقيحها حتى تسهم فى وضوح الأمور وجلائها ، بوصفها مصدر الصواب فى كل شيء، بعد أن سئل عمّا يودّ أن يفعله إذا حكم البلاد . فأطرق كونفشيوس لحظة، ثم قال : **أصحّحُ أسماء الأشياء** . وما علاقة تصحيح الأسماء بالحكم الصالح ! أجاب كونفشيوس : عندما تكون أسماء الأشياء مغلوطة يصبح الكلام غير صحيح، وعندما يصبح الكلام غير صحيح لا يجري العمل بشكل صحيح، وعندما لا يجري العمل بشكل صحيح يُصاب بالضرر كيان المجتمع، وعندما يُصاب بالضرر كيان المجتمع لا تعود العقوبات تناسب الجرائم، وعندما لا تناسب العقوبات الجرائم لا يعرف الناس ما يفعلون[7] . ولعل فى رسالة كونفوشيوس Confucius ما يفيد الأهمية القصوى التي يمكن أن تكون عليه اللغة فى تسمية الأشياء بشكل صحيح عن طريق اللغة، وهذا ليس أمرا هينا فى حق مستقبل أجيالنا وهويتنا ، بتفعيل لغتنا بما يستوجب إنتاج المعنى من خلال استثمار مدركات الحياة اليومية، على نحو قابل للتفاعل مع التطور الحاصل فى جميع مجالات المعرفة، بخاصة اللغة الوظيفية؛ ذلك لأنه كلما تنتج اللغة الوظيفية معنى خاصا، كلما تبتعد عما تشحنه اللغة من ضوابط وقوانين صارمة . ومن هنا، يأتي إنتاج المعنى فى اللغة الوظيفية التي تستمد مقوماتها من الحزم اللين، أو كما أطلق عليه نيكلاس لومان Niklas Luhmann بـــ " الربط الرخو الربط المتين ، من منظور أن الأنساق اللغوية المستقرة القابلة للحياة لا بد وأن تكون رخوة الارتباط ... وبالتالي صنع عبارات ذات معنى .[8]

إننا بحاجة إلى قرارات مسئولة، وشجاعة، وحكيمة، لجعل اللغة العربية ناصية اهتماماتنا، وذوقنا السليم، حتى لا تتأثر باللهجات فى محيط استعمالها، كما نجعل منها لغة تسهم فى توطين العلوم والمعارف الجديدة، وفى هذا ما يشكل مدخلا لثورة فكرية حتى من يصرون على اختصار اللغة والبحث اللغوي على النحو والصرف ، واختصار النحو على الإعراب ، وتجريد اللغة من جوهرها الثقافي

والمعرفي ، وجعلها وعاء فارغا بلا محتوى . واللغة أخطر من أن تترك لعلماء النحو وأساتذته وحدهم ، وأكبر من أن تحصر في هذا الاطار الضيق الذي لا يتناول الغايات والوسائل ومستويات اللغة : فصحى وعامي ، واللغة والعلم ، واللغة في عصر العولمة.[9] واللغة بهذا الشكل مسئولية الضمير الحي، والقرار الحكيم، قبل أن تكون مسئولية الجميع، بخاص المدرسة التي ينسب إليها فشل إتقان اللغة على الرغم من تحملها جزءا كبيرا من هذا الفشل .

٤ . متاهة اللغة . إنتاج الدلالة

لقد أحدثت كثيرٌ من الثورات ــ قبيل انثناء نهاية القرن العشرين، وبداية الألفية الثالثة ــ تغييرات جذرية فى تقنية صناعة المعلومة المعرفية، منها على سبيل المثال، لا الحصر، ثورة الاتصال [بما فيها ثورة الميديا Media] والثورة الرقمية، وثورة الجينات، وثورة الشيفرات الوراثية، واختراق الزمن، وابتلاع الضوء، وغزو الفضاء، إلى غير ذلك من الثورات التي تَغيب عنها أي مشروع عربي يسعى إلى الاندماج فى هذه الثورات، أو الإسهام فى بلورتها؛ الأمر الذي جعل الأمة العربية تعيش فى ركح زاوية حادة، فى انتظار زحزحتها إلى الهامش لنكون خارج الحدَث . وكأننا لا ندري فى أي الأيام نعيش على رأي صلاح عبد الصبور[10] ، في :

هذا اليوم المبوء هو اليوم الثامن

من أيام الأسبوع الخامس

في الشهر الثالث عشر

وإذا كان مركز العالم يتحول بدراسة محكمة، وبرؤى استراتيجية، إلى هذه الثورات المعرفية، فإننا نأبى الخوض فى تجربة المشاركة فى صنع هذه الثورات، وكأننا لا نشعر بقيمة فعلها المنجز إلا باستهلاك نتائجها، وما تحتويه من مضامين، تصلنا بسهولة ويسر، ومن دون عناء يذكر . وقد ساعد على تأخرنا، فى جميع المجالات، إهمالنا لغتنا، وعدم معرفة الترويج لها لقصور التفكير، والإصابة بمرض التعالم، واهتمام العقل العربي بالشيئية، وذهان السهولة، حينما يبادر إلى حل إشكال صعب؛ فيخرِّبه لعدم معرفته بالطرق السليمة لحل هذه الإشكالية، أو هذيان الاستحالة وهذان الشكلان يتمثلان فى صورة نوعين من الذهان Psychose ، فإما أن تمثل فى صورة النظر إلى الأشياء على أنها سهلة ، وهو قائد لا شك إلى نشاط أعمى ... وإما أن يأخذ صورة النظر إليها على أنها مستحيلة ، فيصاب النشاط بالشلل[11] ، وبخاصة عندما نرى الأمور مستحيلة، ونقف أمامها عاجزين، وهي فى الحقيقة غير ذلك؛ لعدم تمكننا من أدائها؛ ولفقدنا الوسائل التعبيرية والمنهجية، والكفاية القادرة على

حله . أضف إلى ذلك اعتماد التجارب الفارغة من أي محتوى فكري . وسواء مع ذهان السهولة فى الإقبال على التكرار، أو مع ذهان الاستحالة الذي يقود إلى العقم، تفتقد هويتنا اللغوية مكانتها الحضاري .

وفى خضم هذه الأجواء المتعفرة لا سبيل إلى النهوض باللغة العربية ما لم نرسم طرق تدريسها، والاهتمام بها فى جميع المؤسسات حتى تصبح آهلة للتعايش مع الألفية الثالثة، وتصبح قابلة للصرف مع الثورات المعرفية والرقائق الإلكترونية، والابتعاد بها عن الانفصال الفكري المفروض عنا، ومنا، فى الخارطة العربية، وجعل الخطاب سائدا فى جميع مرامي الحياة باللغة الأجنبية، من أدنى مستويات التوظيف إلى أعلى هرم . ولعل هذا ما جعلنا محاصرين بقيود لغات الآخر، وذلك نتيجة تراكم قرون من الابتعاد عن وظيفة اللغة العربية والمعرفة النافعة، والعمل جاد؛ لذلك أصبحت الأمة العربية ــ كما جاء فى رأي مالك بن نبي ــ كالفارس الذي أفلت الركاب من بين قدميه ولم يسترده بعد، فهو يحاول أن يستعيد توازن .(2)

والحقيقة أن التحديات التي تعيشها اللغة العربية لا تقتصر على كيانها فحسب، بقدر ما تمس، هذه التحديات، كيان لمجتمع العربي برمته، خاصة ونحن نعيش حالة شغف بالاقتداء بالآخر الغالب] فى جميع مواصفاته، متناسين مقولة ابن خلدون: أن الأمة إذا غلبت، وصارت فى ملك غيرها أسرع إليها الفناء (3) . وكذلك بعد أن يفقد المجتمع فعاليته عندما تَنبتُّ الصلة بينه وبين لغته، وبين أفكاره المطبوعة وأفكاره الموضوعة .

ومن هذا المنظور استوجب الأمر منا ترسيخ حب لغة أحلامنا، وارتباط روحنا بها، وهذا فى تقديرنا أهم عامل، والأكثر أهمية، فى بناء شخصيتنا . ولكن، كيف السبيل إلى ذلك؟ ثم كيف السبيل إلى تطوير اللغة العربية فى ظل اكتساح جرَّافة اللغة لإنجليزية بقية اللغات التي يراد لها الاستخذاء؟ وكيف يرضى ذووها الخنوع والذل، ويخضعون للآخر وإضعاف شخصيتهم؟ وقبل ذلك ما هي محركات تفعيل اللغة العربية فى ظل العولمة، وتكنولوجيا المعلومات؟

لعل أهم محرك هو التحصيل المعرفي، والتحصين الثقافي المترامي، مع العلم أن المعرفة تضمن للإنسان مجموعة محركات، من أهمها :

- الزاد العلمي، وكل ما يُستخلَص من أنواع المعرفة .
- قدرة الاستيعاب .
- اكتساب الخبرة، من عوائد المهارة اللغوية، ومن الاستنتاج والتعمق فى التحليل، والتبصر فى التفكير .

- القدرة على التركيز .
- رفع المستوى السلوكي ، الأخلاقي الذي من شأنه أن يسهم فى التفرقة بين الصواب والخط .
- تعزيز المهار .
- تنمية القدرة الذهنية .
- ارتفاع مستوى أداب الجود .
- تثمين القيمة، كونها السبيل إلى معرفة الصالح من الطالح، ومن يضلل المعرفة فلا سبيل له إلا العنف، وهو الحاصل فى حواراتنا العقيمة، وفى نسقنا الثقافي بوجه عا .

ومن الثوابت فى الدراسات العلمية أن أيّ معالجة للتنمية البشرية لا تفلح من دون التعامل معها ضمن سياق تفتح عقول الناشئة على العمل المعرفي . وبنور المعرفة، من مهارة اللغة، يحصل منه نور اليقين، وبحصول ذلك النور تتضح الحقائق والأمور، ضف إلى ذلك أن إثارة الوعي بدور اللغة، وما ينتج من ثمار، ا، تُمكِّن القوةَ المتضمَّنةَ فى القول . وبسلامة اللسان نضمن، نسبيا، العدل الاجتماعي، ونشر القيم الفاضلة، وكثرة طلب المود .

كل ذلك الضرر ناجم من أن إهمال اللغة، وقلة الاطلاع، وانحسار القراءة، والتشبع المعلومة المسمومة، يؤدي بالضرورة إلى انغلاق الأفق وانسداد الرؤية، وحصر البصيرة فى خانة ضيقة بتوجيه من الجهل إلى العنف، وكل ما يدور فى فلكه من ارتدادات جارح . ولعل المحصلة من وراء هذا الإهمال أننا جعلنا من براعمنا عصافير خشبية لا تقوى على الطيران؛ لأن التل يذ فى مدارسنا لم يزود باللغة التي تمكنه من التحصيل العلمي والتحصين الثقافي، والتحليق فى الإبداع، والإمساك بالريشة الفنية، عوض الإمساك بالعصا ــ الآلة ــ الفتاكة؛ لذا فهو ــ بحسب رأي أحد الباحثين ــ أشبه ما يكون بالطائر الخشبي العاجز عن الحركة، أو الطائر الجارح المسلوب الروح والإراد . فما الذي حول طيورنا الجميلة إلى طيور خشبية، أو طيور جارحة؟

، انطلاقا من أن الاهتمام باللغة فى أي مجتمع هو اهتمام بالذات فى تمكين هويتها من الاستمرار فى بناء الحضارة، فإن أي لغة تكون لديها القابلية لأي مسعى يحرك ذويها للتساؤل عن إثر ئها، بالمستجدات الضرورية؛ لأن اللغة هي مسكن الكائن حسب رأي هايدغر Ieidegger Martin ، ويمكن أن نستدل على هذا برأي أحد الغربيين من الذين ينظرون إلى اللغة العربية على أنها مرآة مصقولة بالمرجعية الثقافية، ومحـ ، ة بالتقدير من خلال ما قاله دومينيك شوفالييه[4] Dominique Chevallier من أن اللغة العرب ة فى منظور ذويها ترتقي إلى مستوى التقديس؛ لأنها مازالت بقيمها الروحية، وعلى الرغم من أن هذه اللغة تكيفت " بأشكـ ل مختلفة، مع تحديات الحداث " فى القرن العشرين من خلال الأنماط الجدي ة للتربية، وللتواصل الإيديولوجي ... فإنها ظلت، مع ذلك، الضامنة لاستمرارية

المثل الإسلامية وللرسالة الإلهية، بل إنها تمثل ذاكرة تمنح للفرد عناصر الوعي للتعبير عن هويته قياسا إلى الجماعة التي يتحرك بداخلها، وإلى إمكانية التسامي عن هذا الاجتماعي داخل الإسلام بوصفه دينا كونيـ .

إن الهدف **التربـ ي التعليمي** بحاجة إلى رؤية استراتيجية حكيمة ترعى مصلحة الهوية قبل مص حة الحياة اليومية الاستهلاكية فى جميع مكوناتها؛ لأن هذا الهدف ــ المتبع حتى الآن ــ لا يقوم على برهنة الشيء بمسببه، ولا يُخضِع المتلقي للملاحظة التحليلية، أو الداعية إلى التبصر بالقدر الكـ في، وإذا كنا نعترف بجهود القائمين على منظومتنا التربو ة، وإذا كنا نقر بصعوبة التحكم فى العدد المتزايد فى الصفوف، وإذا كنا نعترف بوجود خطط منهجية جيدة، وإذا كنا نعترف بهذا وغيره كثير من جهود المعنيين بالأمر، فإن ذلك لا يكفي ما لـ تحـ ن الجهـ د بطرق منهجيـ ، أ ثر صرامة، أو كما قال الفيلسوف ديكارت René Descartes : لا يكفي أن يكون لديك فكر جيـ ، ولكن المهم أن يطبق جيد ".

فكيف لنا أن نطبق فكرنا جيد ؟ وقبل ذلك، كيف لنا أن نقرب لغتنا إلى هذا الفكر الجيد، والإبداع العلمي، الكشفي؟

منذ البداية نعترف أن لغتنا العربية تصارع المواراة، وتعارك الأشباح، وتقاوم التحدي، وتجابه الظُّلمة التي تتخفى بتلاوين وأصقاع من صر عات، وتحولات سوداوية المسوغات فى نتائجهـ . وهذا ما لم يستسغه الخطاب العربي الغيور على لغته العربية التي تمثله، من منظور أن تلك المسوغات فتحت مجراها على التحايل، والتشويه، و لزيفـ . والحال أن اللغة العربية فى ظل صراعات دون كيشوت Don Quichotte بحاجة إلى سياسة رشيدة، وقرار حازم لاتخاذ ما يلزم، حتى نرقى بلغتنا إلى مصاف الرقي الحضاريـ . وما لم نحل مشكل لغتنا المعبرة عن هويتنا لن نصل مهما سلكنا من سبل ؛ لأن " الناس قبل أن يس خدموا اللغة لمجرد توصيل المعلومات بأسلوب أمثل من حيث الكفاءة، إنما يستخدمونها لخلق وصون هوية اجتماعية، وحدود اجتماعيـ . ويدخل هذا حتى فى طريقة تفكيرنا عن اللغا ."[5]

ولعل ما يدعو إلى الحيرة والدهشة، وهذا ما ننتظر الإجابة عنه من الحاقدين على اللغة العربية، هـ : كيف تناغمت بعض اللغات التي كانت ميتة مع متطلبات العصر، مثل اللغة الأردية، واللغة التركية التي استبـ لت حروفها فى عهد أتاتورك [1881 ــ 1938] الذي أراد لها أن تنافس اللغة الأوروبية، أو تلك اللغات التي تعشت بذويها، ونهضوا بها، ولنا فى ذلك أمثلة كثيرة تفوق كل حصر نذكر منهـ :

• اللغة الصينية المتناغمة مع متطا ات العولمة، وأصبحت تهدد الغرب فى عقر داره بمنتوجاتها المنافسة لصناعة الغرب المتميز .

• اللغة الأردية التي أصبح لها تأثير على اللغة الهندية على عراقته . كما أن حروفها مقتبسة من لحرف العربي وهي اللغة الرسمية فى باكستان بمسوغاتها النووي .

• للغة الكورية المسماة بـــ " الهانغول Le hangeul " ويعود تأسيس حروفها إلى العالم اللغوي " جو شيج يونغ " (913 ، ولها ما لها فى الساحة التكنولوجية اليو .

• اللغة الفارسية التي أصبحت لغة نووية، وتناور الغرب فى تقنياته العلمي ، بعد أن باتت قض مضجعه وتؤرقه، وتهدد العالم فى نظر الغرب .

• اللغة الفنلندية التي يبلغ عدد سكانها خمسة ملايين نسم ، وجعلوا من لغتهم لغة صناعية، حتى أصبح يتباهى كل فرد فى العالم باقتنائه هاتف نوكيا Nokia المصنع فى فنلندا Finland ، ناهيك عن صناعات متنوعة تُستخلَص من هذه اللغة، على الرغم من قلة المتحدثين به .

• اللغة الدانماركية : والتي لا يزيد سكانها على خمسة ملايين نسمة، تميزوا بصناعة الألبان ومشتقاتها التي لا تستغني عنها أي مائدة فى العالم سواء أكانت عالية الحسب والمقام، أو قليلة الخير وميسورة الحال .

• اللغة العبرية : وهي مثال بيِّن وواضح، ولا أحد يتغافل عن تاريخ إحيائها، ومدى دورها فى التكنولوجية النووية، ويحضرني هنا قول " في لارنر ، الناطق باسم عضو الكنيست :" لا يوجد عندي ي ء ك ء ن المجتمع الاسرائيلي ذا راد الحفاظ على طابعه اليهودي عليه ن يعزز منزلة اللغة العبرية . و كد لارنر" لوكالة فرانس برس rance-Presse :" كمجتمع ودولة، ء ن اللغة العبرية تشكل استمرارية لسلالة جيال بدأت قبل الآلاف من السنين [6]. ومن دوافع غيرة اليهود على لغتهم ما ذكرته صحيفة معاريف " الناطقة بالعبرية ن الكنيست وافق مبدئيا على مشروع قانون يطالب بالكتابة على الواجهات ، و لافتات المتاجر ، باللغة العبرية الواضحة، وإلا ء ن الرخص ستسحب من المتاجر والمطاعم و صحاب المؤسسات التي تخالف هذه التعليمات . و ضافت معاريف : ز" لكنيست يعارض كتابة اللافتات با نجليزية ، ويهدد بسحب تراخيص ا عمال المخالفا [7] .

أمام هذه الصور المعبرة، والدالة عن قتامة الوضع عندنا فى الوطن العربي، أ ليس من حق براعمنا أن تحمِّل مسئولي الوطن العربي وزر ما آلت إليه العربية، ومن تضليل مكانتها، والدور المنوط بها . ثم، أين هو دور المؤسسات المدنية منذ أنشئت، وحيث ا كانت؟ أم أن دورها منحصر فقط فى تعزيز مكانتها فى البحث عن المناصب العليا؟ متناسية دورها فى الحفاظ على ثوابت الأمة، واللغة الوطنية هي أحد هذه الثوابت المعبرة عن هويتنا . وإذا كانت قناعتهم بأن اللغة الأجنبية هي الحل الأمثل لمستقبلنا، فما الذي فعلوه منذ كانوا يدافعون عنها؟ وماذا قدمت هذه اللغة للمستقبل الذي كان

قبل خمسين سنة أوَانا لمستقبل مشرئد ؟ أم ن لكل شيء أوانه المخيَّد ؟ ومتى يحين هذا الأوان؟ والحبل على الجرار فى انتظار هذا الأوان الزاهي الذي يرزح تحت رحمة . رف السين للتسويف الموعود، وتعهداته التي قد تأتي أو لا تأتي، بعد أن كان آ ؤنا ينظرون إلى المستقبل وكأنه فى متناولهم، أو على الأقل فى متناول أبنائه . فلا التسويف أجاد [أي أتى بالجديد ، ولا الأوان أفاد، ولا المستقبل ازدهر، ولا اشر أبت إليه الآفاق، ولا أفاد ن يء فى أوانه، ولا فى غير أوانه، وتهنا وتاهت بنا الس ل بين الأوان والهوان، فأصبحنا فى موضع هوْنٍ على هوْنٍ، وليتها دار لقمان بقيت على حالها، بل على العكس من ذلك أرِيدَ لنا أن نرتقي إلى الصعود نحو الأسفل بكل جدارة، ومن دون استحقاق، بوصفنا لا نستحق ما فعله الـ هلاء باللغة العربية، وجه بذة اللغة الأجنبية الذين رأوا فى ضالتهم سبيلا، ولا يعرفون أنهم فى ضلال من أمرهم المشين .

وإذا كانوا يتذرعون بنماء اللغة الأجنبية بوصفها الحل الأمثل، فالأمر مردود عليهم، بوصف هذه اللغات الحية واكتسابها أمرا يعزز مكانة اللغة الوطنية، وه ه حقيقة لا يمكن نكرانها، وليس فى ذلك ما يهدد هويتنا التي تصونها لغتنا العربية عندما نتسلح بمكوناتها وضوابطها، شريطة أن تتداول اللغة الوطنية وفق الأسس العلمية، والمنظور الاستراتيجي الوطني، حتى نتمكن من تحصين الذات من كل المقومات، ونجعل منها لغة تسوّق م توجاتنا العلمية والفكرية والثقافية؛ ولأن الثقافة عامل مهم لكل الشعوب و لأمم، فلا يمكن أن تحقق غايتها فى غياب الاهتمام باللغة الوطنية، وليس غريبا أن نقول : من لا يملك آلية التمكن من لغته لا يمكن امتلاك ثقافة تؤكد وجوده فى الحياة على مر العصور . وفقدان وعي الـ وية، و الانتماء، دليل على الارتماء فى قاع ثقافة الآخر، والنيل من ثقافة الذات، سواء عبر مسار المكون الحضاري، أو عبر أنساق العلامة المركبة من عنصرين دال اللغ) فيما يسميه جاك لاكان Jacque Lacan بالكلمات، و مدلول الأفكار) فعندما تنهار السلسلة الدالة، عندها تصيبنا شيزوفرينيا على شكل خلط بين المدلولات المنفصلة وغير المترابطة، وإذا جرى تركيب الهوية الشخصية عبر خليط مؤقت بين الماضي والمستقبل والحاض ر، وإذا ذهبت الجملة فى المسار نفسه، فالعجز آنذاك عن ربط الماضي والحاضر والمستقبل فى الجملة يجلب معه عجزا مشابها فى ر بط الماضي والحاضر والمستقبل فيما خص وحدتنا البيولوجية الخاصة وحياتنا النفسي ... أما تأثير الانهيار فى سلسلة الدلالات فسيكون تحويل تجربتنا العملية إلى سلسلة من أشكال الحاضر المجردة وغير المترابطة .[8]

وفى مثل هذه الحال ، ليس لنا إلا أن نؤكد أن التمكن من لغتنا هو الحاجة العليا لزرع الوطنية " ونحن اليوم، والأمة العربية تقرع أبواب القرن الحادى والعشرين، وقد أثخنتها الجراح، وأثقلتها الحروب المصطنعة والهزائم المصممة ، والاستسلام المهين أمام العدو، لنجد من واجبنا أن نعيد النظر

ى السياسات اللغوية ى جامعاتنا ومؤسساتنا العلمية والتربوي . وليس ذلك لأنها تحدد هويتنا الحضارية فحسب، ولكن بوصفها العنصر الأساس ا تقدم العلمي والمشاركة المبدعة ى بناء الحضارة الحديث . وإن هذا الدور الفكري والعل ي الرائد الذي قامت به العربية ى تاريخها الزاهر ولعدة قرون، هو الدور الذي تد ى إليه ى هذا العصر من أجل نهضة علمية وفكرية، تعيد للأمة العربية مكانتها بين الأم ، وتحررها من ربقة التبعية الفكري ، وتنقذ كياناتها المتهافتة من الضياع والاندثار "[49].

وأمام تعاجم اللغة العربية على ألسنتنا، وتراطن كلامنا، وتلعثم نطقنا بلسان محبوس، فإننا نستغرب فوق ذلك أن يبتدع شبابنا عربية هجينة، فاقت كل تصور، تسمى بعربية الدردشة ، وهي طري ة كتابة العربية بحروف لاتينية فى الرسائل القصيرة عبر وسائل التواصل الاجتماعي، أو ما يطلق عليه **المجتمع الشبكي** éseaux sociaux؛ ، أو عبر الهواتف المحمولة، والكل يعرف هذه ا شكالية، ولا أحد يحرك ساكنا، والكل يتفرج بصمت مُطبَق على خطورة ما آلت إليه اللغة العربية التي صارت عسير فى دارها، بدءا من ربِّ البيت الذي لم يَرْعَ أبناءه امتثالا لمقولة الشاعر :

إذا كان رب البيت بالدف ضاربا   فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

ويا للعجب من نتائج تمخُّضِ هذا الرقص، خاصة إذا كان الراقص طفلا ــ من دون وعي منه، أو أجبر على المشاركة بف ل إيقاع الرقص ــ كيف سيكون غدا فى أثناء تحمل المسئولية المنوطة به، أيا كان نو ها، وما ذنب هذا البرعم الواعد فى تحمل تبعات هؤلاء المهرة فى الرقص المثير والفاضح، وأمام مسئو ي أبناء الغد القريب (!...) وهل يعدّ لوم هؤلاء المحترفين، فى الرقص، تجنيا عليهم، أم على اللغة العربية؟

وإذا كان الأمر كذلك ، كيف لنا أن نعطي معنى مقبولا، ومقنعا لهويتنا اللغوية على وجه التحدي ؟ وكيف تكون الهوية نسقا ثقافيا لحياتنا اليومي ؟ وقبل ذلك كيف نوفق بين ثوابت هويتنا، وتغير الوعي الكوني . صحيح أن هذا النمط من الحياة الجديدة أخفى الكثير من ثوابت الأصل، غير أن هذا لا يمنع من أن للأصل مصيرا حتميا فى حياة الإنسان على مدار الحياة الكونية ينبغي المحافظة علي ؛ " لأن أنساق الهوية بحسب تعبير كاسيلز Kastells هي محرك دينامي فى تشكيل المجتمع، وبأنها عملية بناء المعنى على أساس خاصية ثقافية، أو مجموعة مرتبطة من الخصائص الثقا ، تحظى بأولوية على مصادر المعنى ... وأن من يبني الهوية الجماعي ــ وأيا كانت الأغراض ــ يقرر بدرجة كبيرة المحتوى الرمزي لهذه الهوية ومعناها لأولئك الذين يتوحدون معه [50] ، بخاصة مع التطور المعلوماتي بفرضياته الجديدة والمتوحدة مع أنماط ثقافة الأجيال القادم ، المرتبط بالمجتمع الشبكي

الذي أحدث رجة شملت القيم والمفاهيم بجميع أشكالها ، بعدما اتخذت وسائل هذا المجتمع من تقنيات عالية جودة أبعادا أساسها الانتقال مما هو قار إلى ما هو مفكك، على النحو الذي ترمي إليه أفكار ما بعد الحداثة .

وباقتحام النسق الثقافي الرقمي بوظيفة المجال السايبري Cyberspace ، يحاول البراديغم Paradigme الجديد أن يزيح ــ نسبيا ــ عن مدلول الهوية ، بمكوناته ، الدور التقليدي الذي كان يتحكم في توجيه الناس، في المقابل أصبح يمنح الفرد نسقا خاصا يقوم على حرية الذات في التعامل مع النزعة الفردانية Individualité التي تماثل تعاملها مع محركات تصفح الروابط الإلكتروني .

---

(4) ينظر، ناصيف اليازجي : **شرح ديوان المتنبي** ، بيروت، دار صادر، المجلد الأول، د ، ص 85 .

(5) في محاضرة ألقاها المجمع الثقافي ضمن فعاليات معرض أبوظبي الدولي للكتاب ينظر ، http://www.alarabiya.net/

(6) عبد الخالق عبد الله : **العولمة ــ جذورها وفروعها وكيفية التعامل معها** ، عالم الفكر ، 28/ أكتوبر، ديسمبر، 999 ، ص 74 .

(7) ينظر، الرابط : http://www.almosul.org

(8) نيكلاس لومان : **مدخل إلى نظرية الأنساق** ، ترجمة يوسف فهمي حجازي، منشورات الجمل، ط ، 010 ، ص 280

(9) فاروق شوشة : **إنقاذ اللغة .. إنقاذ الهوية** . جريدة الأهرام العدد13532 ، 12 فراير 006 .

(10) صلاح عبد الصبور : **المجموعة الكاملة** ، دار العودة، بيروت، ط ، 972 ، ص 69 .

(11) مالك بن نبي : **وجهة العالم الإسلامي** ، ترجمة : عبد الصبور شاهين، دار الفكر، ط ، 986 ، ص 88

(12) مالك بن نبي : **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي** ، ترجمة : بسام بركة وآخر ، دار الفكر، ط 1 ، 988 ، ص 217 .

(13) ابن خلدون : **المقدمة** ، الفصل الرابع والعشرون، ص 65 .

(14) Dominique Chevallier, **Les arabes du massage a l`histoire**, Edition Fayard, Paris 1995, p51

(15) روبين دونبار، وآخرون : **تطور الثقافة ــ رؤية في ضوء منهج البحوث المتداخلة** ــ ترجمة : شوقي جلال، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 005 ، ص 95 .

(6) علي الطالقاني : **في دائرة الاستهداف ... اللغة العربية مخاوف من اندثاره** ، الرابط : www.annabaa.org/

(7) المرجع السابق .

(8) ديفيد هارفي : **حالة ما بعد الحداثة ــ بحث في أصول التغيير الثقافة** ، ص 77

(9) عبد الكريم خليفة : **اللغة العربية والإبداع الفكري والعلمي في العصر الحديث** ، الرابط : www.arabicacademy.org.

(10) ينظر، السيد ياسين : **شبكة الحضارة المعرفية، من المجتمع الواقعي إلى العالم الافتراضي** ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 009 ، ص 94، 99 .